الرق والكراسة

جلست على كرسي خشبي وأمامي طاولة أحاول تمثيل فعل الكتابة على رق قديم، مستعمله ريشة ومحبرة، وعلى الطاولة جانبا جرة ماء. أرتدي الزي التقليدي الذي قدمت به من بلدتي وعلى كتفي ثوب أبيض مخلل بحلي من الفضة، جدائل طويلة، ويدين مخضبتين بالحناء، قال الرسام وهو يحاول فك أسرار محياي قبل الشروع في بصمي على لوحته: "أي جمال رباني طبيعي تمتلكينه يا سيدتي حادة، أنت بمنتهى الجمال! " لم يكن مجرد رسام بل كان شاعرا مثقفا، وبين هذا وذاك إنسانا.

كنت أعود قبل الحادية عشرة صباحا للمنزل، لا بد ألا يحس الأبناء بغيابي أو بشيء تغير. استمر الحال على ما هو عليه ولم تنته اللوحة بعد، تحول الرق الذي كان بين يدي لكراسات أتعلم منها فن الخط والقراءة، محوت الغبار على سنين مرت من عمري لا أذكر منها سوى ذلك المعلم الذي قدم من مدينة فاس، كان يمشي كيلومترات بين الجبال ليصل حجرة الدرس المنزوية خلف الكثبان الضبابية، مرة على دابته وأخرى على قدميه، ترك العمل عندما بدأ ينتفخ بطن إحدى بنات الدوار، رفع عليه والداها دعوة قضائية كللت بذبح الفتاة

من الوريد إلى الوريد! كانت المسكينة قاصرا والفتى قد تخرج من كلية الخداع كهلا. بدأ رجال القبيلة يخشون على بناتهم وعلى ضياع ماء وجههم فشرعوا في تقديمهن قربانا لعرفهم، يزوجن قاصرات بالفاتحة والشهود وصحن كسكس، ويجال بالمنديل الأبيض المنقط بالدماء بين القبائل فرحا بعذرية العروس، وويل لمن لم تعطهَ الطبيعة بِركة من الدماء تفي بالغرض. ربما الأشياء بدأت تتغير اليوم، لكن والحق يقال لم يتغير شيء. لا زالت بنات من مناطق كمدينة آنفكو وغيرها تُزوجن قصرا حتى لو تم تطليقهن فيما بعد، قد يحبلن مباشرة ويصبح الطفل أو الطفلة شخصا بدون أوراق تبوثية تمكنه من الانخراط في الحياة الحضارية التي تخضع لبرمجة الحواسيب، أناس خارج الوطن وهم فيه، أناس خارج الحضارة وهم بانوها، طفلات أمهات لأطفال من صلبهن، والحياة لا تزال أشبه بلوحة تشكيلية لا تتغير معالمها رغم التطور السريع الذي يشهده الكون.